

الحركة الأدبية بتوات من ق10هـ - ق12هـ

تاريخ قبول المقال للنشر 2017/05/11

تاريخ استلام المقال: 2016/09/29

أ: عبد الله حرمة - كلية الآداب واللغات - جامعة تلمسان

البريد الإلكتروني: abdellahharma@gmail.com

الملخص:

عدّ سكان إقليم توات (أدرار حالياً) اللغة العربية الركيزة الأولى في بحوثهم، ذلك لأن اللفظ والكلام لا يستقيم ولا يكون على وجهه الدقيق إلا إذا تمكن المتكلم من إتقان اللغة العربية خاصة النحو والإعراب، أما الحركة الشعرية فكانت مزدهرة بفضل علمائها الذين أبدعوا فيها، فخزائن المنطقة لدليل على ما كان عليه التواتيون من اهتمامٍ بجميع فنون الشعر من مدح وثناء وتوسل... ساهم في تنشيط الحياة عندهم.

Abstract:

People of Touat region (currently Adrar) considered Arabic as the first pillar in their research, because the word and the speech will not be correct or accurate except if they enable the speaker to master grammar and its use. The poetic movement was thriving thanks to scientists who have excelled in it. Moreover, the manuscripts is a good evidence that the Touatians gave great interest to all poetry arts such as praise, lament and begged that contributed to the revitalization of their lives.

مقدمة:

كانت توات منذ تاريخها المبكر منارا للعلم وسط هذه الصحراء الشاسعة، حيث توافد عليها لعلماء من خارج الإقليم، ومع مرور الأيام ازداد التواصل وتوسع وتكثفت معه أشكال التفاعل الحضاري، ومن ثم انكبت النفوس على الدرس وراحت الأقلام تترجم الأحاسيس والمشاعر، وتُعبّر في دهشة وإعجاب عن واقع هذا التفاعل، ومن ثم كان لنا هذا الكمّ من المؤلفين والمؤلفات، فما هي مجالات هذه الحركة الأدبية التواتية في هذه الفترة؟ وما هي المعارف والعلوم والأغراض والفنون الأدبية التي ساهموا بها في الرقي بهذا الإقليم؟

اعتمد التواتيون في تعلّمهم وتعليمهم على الزوايا بجهود علمائهم والخزانات الشعبية والخاصة، فلكل زاوية شيخ يهتم بشؤونها وتطويرها.

1- الزوايا والمدارس القرآنية العامة المنتشرة في كل أقطار الإقليم:

تعتبر الزوايا مركز العلم والثقافة العربية والإسلامية، ولقد لعبت دورا بالغ الأهمية في نشر الإسلام واللغة العربية، وتخرج منها العلماء والفقهاء وحفظة القرآن الكريم، وهي من هذه الناحية تعد مدارس ابتدائية وثانوية ومعاهد عالية في آن واحد¹.

والزاوية اسم يطلق على بناء أو طائفة من الأبنية ذات طابع ديني، وعرفت في أوائل القرن 08هـ، فكانت تطلق على مكان معد للعبادة كالمسجد، ويشتمل على المرافق للطلبة المجاورين بها، وإيوائها للواردين عليها وعابري السبيل².

2- الخزانات الشعبية والدور الخاصة التي كان العلماء يترددون عليها ليشكلوا حلقة درسمهم وتعليمهم، وتعد موطنًا من مواطن الدرس اللغوي والأدبي بالإقليم، ذلك أن علماء الإقليم وبعد تفرغهم من وقفات تدريسهم في موضوعاتهم اللغوية والأدبية المختلفة، يلجؤون إلى تدوينها ونسخها بل وإلى شرحها والتعليق عليها حتى يسهل فهمها ومتابعتها من الطلبة المتدربين من جهة، أو تورث للأجيال اللاحقة من جهة أخرى³.

وجدير بالذكر أن جهود الطلبة التواتيين لم تقتصر في تحصيل الإجازة العلمية والأدبية من العلماء التواتيين، بل إن بعضهم سافر خارج الإقليم للحصول على الإجازة العلمية والأدبية من كبار علماء الأقطار العربية، فعادوا إلى توات وأصبحوا من خيرة علمائها، حيث تولوا مناصب القضاء والإفتاء والتدريس، فالشيخ البكري بن عبد الكريم تعلم على يد مجموعة من مشاهير الفقهاء الذين أجازوه في شتى العلوم، أمثال الشيخ قدورة بن إبراهيم الجزائري⁴، والشيخ بن علي النحوي التواتي⁵، والشيخ الإمام الخرشبي شيخ مشايخ الديار المصرية.

ونذكر أيضا من جملة المشايخ التواتيين الذين درسوا في الخارج الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاي، الذي أخذ العلم على يد الشيخ محمد بن عبد الله بن أحمد بن أمبارك السجلماسي

¹ - ينظر: عبد العزيز شبهى، الزوايا والصوفية والغربة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب وهران، الجزائر، دط، ص46.

² - أحمد جعفري، محمد بن أب المزمري حياته وآثاره 1160هـ، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2004، ط1، ص46.

³ - أحمد جعفري، الحركة الأدبية في إقليم توات، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م، ط1، 82/1.

⁴ - هو أبو عثمان سعيد بن إبراهيم المعروف بقدورة الجزائري، كان عالما ولى الفتوى بالجزائر، له حواش وشروح منها: شرح الأخضري، توفي 1066هـ. ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية ببيروت، لبنان، ط2، 1980م، ص259.

⁵ - هو يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الأصل التلمساني المعروف بابن النحوي (1041م/1119م)، مجتهد ونحوي وفقه وناظم. ينظر: المرجع نفسه، ص329.

وأجازه، وعلى يد الشيخ محمد بن زكريا الفاسي، وعلى يد الشيخ محمد حفيد ميارة وغيرهم كثير¹.

والحركة العلمية بإقليم توات تنقسم إلى:

أ- حركة أدبية أنتجت في الشعر والنثر:

1-الشعر: والذي عرف أغراضا متنوعة كالممدح والفخر والثناء... الخ.

2-النثر: ويتمثل في الرسائل والوصايا والرحلات والتراجم.... الخ.

ب- حركة لغوية: تمثلت في المؤلفات الفقهية، وكتب التفسير والبلاغة والحديث والتجويد

... الخ.

أولا: الشعر:

وبالبداية مع الحركة الأدبية في شقها الأول وهو الشعر، وسنمثل لكل غرض بنموذج أو نموذجين على سبيل المثال لا الحصر، لأن المجال لا يتسع لذكر كل النتاجات. إن المتأمل للخريطة الشعرية داخل الإقليم التواتي يجدها غير بعيدة عن الوصف العام للشعر العربي الحديث، حيث كانت الأغراض التقليدية المعروفة حاضرة بقوة مع التركيز على غرضي التوسل والمديح النبوي، بالنظر إلى الخصوصية الدينية التي طبعت الإقليم لقرون، وهو ما جعلنا نقف أولا عنده، وما جادت به قريحة التواتيين في هذا المجال².

1-غرض التوسل والدعاء:

التوسل والدعاء من الأغراض الأدبية الجديدة في الأدب العربي، وكان الهدف منه هو رفع المعاناة وتصريف البلوى في الدنيا والتكفير عن الذنوب ومحو الخطايا والطمع بالجنة في الآخرة، وفي هذا المعنى دارت توسلات وأدعية شعراء الإقليم، كما كان الغرض حاضرا بقوة في معظم دواوين الشعراء، ولو بالقصيدة أو القصيدتين، كما نجد ذلك عند الشاعر علي بن حنيني (ت 1115هـ) في دعائه للزاوية البكرية ومؤسسها البكري حيث يقول:

حَمْدًا لِلَّهِ الْعَظِيمِ الْأَحَدِ الْوَاحِدِ الْحَيِّ الْعَزِيزِ الصَّمَدِ

إلى أن يقول:

¹ - فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 و19م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص 88-89.

² - أحمد جعفري، الحركة الأدبية في إقليم توات، 140/1.

وَقَصَدْنَا بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ تَوَسَّلْ بِالذِّكْرِ وَالْآيَاتِ

يَا رَبَّنَا أَنْزِلْ بِهَذِي الزَّائِيَةِ سِتْرًا وَلُطْفًا وَدَوَامَ الْعَافِيَةِ

زَاوِيَةً بَكْرِيَّةً قَدِيمَةً عَلَوِيَّةً شَرِيفَةً قَدِيمَةً

وَسَيَلْتِي إِلَيْكَ يَا مُوَلَانَا لَقَدْ دَعَوْنَا فَاسْتَجَبَ دُعَانَا

وللشيخ البكري بن عبد الرحمن (1339هـ) قصيدة من بحر الرجز مشتملة على التضرع إلى

الله والدعاء، وهي تشتمل على خمسة وستين بيتا يقول فيها:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْغَنِيِّ ذُو النِّعَمِ الرَّزَاقُ الْفَتَّاحُ دَافِعُ النُّقَمِ

ثُمَّ صَلَاةُ اللَّهِ وَالسَّلَامِ عَلَى الَّذِي مِنْ جُودِهِ الْإِسْلَامُ

وَبَعْدُ فَالْبَكْرِيُّ إِذَا مَا اضْطَرَّ وَأَجْحَفَتْ حَاجَتُهُ مُضْطَرًّا

لَيْسَ لَهُ مِنْ حِيلَةٍ إِلَّا الدُّعَا وَقَرَعَ بَابَ اللَّهِ خَيْرَ مَنْ دَعَا

ولعل من أشهر الشعراء البارزين في باب الدعاء والتوسل، الشاعر "محمد بن أب المزمري بما

خلفه في ذلك من قصائد ومقطوعات أولا، ثم بما أضافه إلى شكل بناء قصائده، كما هو الحال

مع القصيدة التي انطلق فيها من الحروف الأربعة عشر للآية الكريمة في قوله تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ

ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)¹، ليجعلها مفاتيح أحادية في مطلع أبيات قصائده حيث قال في

مستهلها:

اللَّهُ رَبِّي لَا إِلَهَ سِوَاهُ مَا خَابَ مُضْطَرٌّ دَعَا مُوَلَاهُ

دَعَاوِيَا مَهْمَا بَرَحَتْ بِي كُرْبَةٌ اللَّهُ لِي حَيْثُ الْكُرُوبُ اللَّهُ

عَوَّدْتُ الْحَاحَ بِذَلِكَ لَهْجَتِي فَظَلَلْتُ مَا عَمَّرْتُ لَا أَنْسَاهُ

وَالِيهِ أُمْرِي فِي الْحَوَادِثِ كُلِّهَا فَوَضْتُ جِزْمًا أَنَّنِي أَكْفَاهُ

نَلْتُ الْمُنَى وَكَفَيْتُ مَا أَخْشَاهُ مُذْ نَادَيْتُ وَارِبَاهُ وَاعْوَاهُ²

ومن القصائد في هذا الباب أيضا تلك التي كتبها الشاعر "حمزة بن الحاج أحمد بن مالك

القبلاوي الفلاني (ت 1335هـ) يتوسل فيها إلى الله في دفع كيد الأعداء، يقول في مطلعها:

يَا مَنْ تَدَكَّدَكْتَ الْجِبَالَ لِهَيْبَتِهِ وَلِذَاتِهِ عَنَتِ الْوُجُوهُ وَخَشْيَتِهِ

جِئْنَا إِلَيْكَ بِآدَمٍ وَخَلِيلَتِهِ وَبُكَائِهِ وَخُضُوعِهِ وَبِتَوْبَتِهِ¹

¹ - سورة غافر، من الآية 60.

² - أحمد جعفري، محمد بن أب المزمري حياته وآثاره، ص 81.

2-المدح:

المدح كما جاء في لسان العرب هو نقيض الهجاء، وهو الثناء، يقال: مدحته مدحه، ومدحه يمدحه مدحا ومدحة، والمدائح جمع المديح من الشعر الذي يمدح به². أما اصطلاحاً: غرض من الأغراض الشعرية القديمة عند العرب، يقوم أساساً على فن الثناء وتعداد مناقب الإنسان وإظهار آلائه وإشاعة محامده.

وحول هذه المعاني السامية لغرض المدح، دارت معظم موضوعات التواتين المدحية، فهذا الشيخ محمد الإداعلي (ق12هـ) يمدح الشيخ سيدي البكري بن عبد الكريم (1133هـ) بقصيدة مدحية على وزن البسيط، وفيها تعرض الشيخ إلى جملة من خصاله ومحاسنه، من تبحر في العلم وحب للعلماء وعدل وقضاء، وما إلى ذلك، قال في مطلعها:

رُزُّ مَنْ هَوَيْتَ وَلَا تَصْبُو لِمَنْ عَدَلَا عَلَى هَوَاهُ وَسَقِّ لِرَبْعِهِ الْإِبِلَا
وَحُطَّ لِلْسَيِّدِ الْبَكْرِيِّ رِكَابُ مِنِي تَجِدُ مِنَ الْعِلْمِ عِنْدَ بَابِهِ الْأَمَلَا
وَأَذْكُرُ كَرِيماً قَصَاهُ لِلْعُلَى خَلَقَ عَذْبٌ وَفَارَ بِسُؤْلِ مَنْ بِهِ نَزَلَا
وَحَيِّ مِنِّي حَبِيباً طَالَ مَا فُتِحَتْ مَفَاتِيحُ الْعِلْمِ مِنْهُ لِلنُّهَى سُبُلَا³

كما مدحه الشيخ محمد بن عبد الله بن الحاج محمد بقصيدة بائية يقول فيها:

إِمَامُ التَّقَى فِي كُلِّ عِلْمٍ لَهُ يَدٌ حَلِيمٌ ذَكِي كَانَ فِي الْعِلْمِ مَذْهَبَا
تَرَاهُ حَمَاماً فِي النَّوَازِلِ مُدُّ رَأَى حَفِيزاً أَدِيباً فِي الْعُلُومِ مَرْغَبَا
فَصِيحٌ وَفِي عِلْمِ الْقَرِيضِ مُقَدَّمٌ فَضِيلٌ مُحَدَّثٌ بِهِ قَدْ تَأَدَّبَا

هذا على سبيل التمثيل لا الحصر، وقبل أن نغادر هذا الغرض علينا أن نخرج على جانب آخر من المديح عرفه التواتيون، وتناوله كثير منهم حتى قل من لم ينظم فيه، وهو المديح النبوي الذي يعكس إخلاصهم لعقيدتهم الإسلامية، وحبهم للرسول صلى الله عليه وسلم. حيث نجد الشيخ ابن أب الذي نظم قصيدة ببحر جديد سماه المضرب في تسعة وثمانين بيتاً، يبدوها بقوله:

¹ - محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، دار هومة، الجزائر، 2005م، 231/1.

² - ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1968م، ج2، مادة (مدح).

³ - أحمد جعفري، الحركة الأدبية في إقليم توات، 206/1-208.

صَلِّ يَا إِلَهِي ثُمَّ سَلِّمْ دَائِمًا عَلَى خَيْرِ الْأَنَامِ
مَا دَعَاكَ أَوْ لَبَّاكَ مُحْرَمٌ قَاصِدًا إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ
إلى أن يقول:

يَا إِلَهَنَا حَمْدًا وَشُكْرًا إِذْ هَدَيْتَنَا سِرًّا وَجَهْرًا
لِامْتِدَاحِ خَيْرِ الْخَلْقِ طُرًّا سَيِّدُ الْوَرَى النُّورِ التُّهَامِي¹

يقول "محمود فرج" في كتابه " إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين: "وقد خصص التواتيون النبي عليه الصلاة والسلام وأهل البيت بنصيب كبير، فها هو الشيخ البكري بن عبد الرحمن ينظم أربعة قصائد في مدح الرسول وآل البيت، ونأتي بمطلع لواحدة منها²:

بِسْمِ خَيْرِ مُمَجِّدٍ وَمُكْرَمٍ وَمُعْظَمٍ فَخَرْتُ فُرَيْشٌ وَجَلَّتْ

3-الثناء:

الثناء في اللغة كما جاء في لسان العرب، لا يختلف كثيرا عن المدح، حيث يقول: "رثى فلان يرثيه رثيا، إذا بكاه بعد موته، فإن مدحه بعد موته قيل رثاه يرثيه، ورثيت الميت رثيا ورثاء ومرثاة ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيتته"³.

أما اصطلاحا يعرفه "ابن رشيق" بقوله: "وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أنه يخلط بالثناء شيء يدل على أن المقصود به ميت، مثل "كان" أو "عدمنا به كيت وكيت" أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام إذا كان الميت ملكا أو رئيسا"⁴، كما فعل الشيخ محمد الإدواعلي (ق12هـ) في رثائه لصديقه الشيخ البكري بن عبد الكريم (1133هـ)، بعدما بلغه خبر وفاته، حيث قال على وزن البسيط:

آه عَلَى تَوَاتٍ حَلَّ الْوَبَالُ بِهَا وَصَارَتْ مِنْ بَعْدِ نُورِ الْعِلْمِ فِي الظُّلَمِ
بِمَوْتِ عَالِمِهَا الْخَبَرِ الَّذِي انْتَشَرَتْ عُلُومُهُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ

¹ - أحمد جعفري، محمد بن أب المزمرى حياته وآثاره، ص 80.

² - فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 و19م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص104.

³ - ابن منظور، لسان العرب، ج2، مادة (رثى).

⁴ - الحسن أبي علي بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت، 2001م، ط1، 96/1.

بِمَوْتِهِ بَكَتِ النُّجُومُ قَاطِبَةً وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْأَنْهَارُ وَالْدِّيمُ

أَعْنِي الْإِمَامَ الَّذِي سَأَلْتُ عَنْاصِرَهُ مِنْ سَيِّدِ الْعَرَبِ وَالْأَتْرَاكِ وَالْعَجَمِ¹

وها هو الشيخ محمد بن المبروك البداوي (ت 1125هـ) يرثي صديقه الشيخ عبد الرحمن بن عمر التتلاي (ت 1221هـ) عند سماعه خبر وفاته في مصر أثناء عودته من أداء فريضة الحج، وقد دفن في مقبرة الفقيه المصري "عبد الله المنوفي"، ومطلعها:

أَلَا يَا مِصْرَ قَدْ أَرْدَدْتَ فَخْرًا بِحَبْرِ حَلٍّ مَقْبَرَةِ الْمَنُوفِيِّ

بُعِيدَ زِيَارَةِ الْهَادِي الْمُنْبِيِّ وَحَجَّ الْبَيْتِ حَقًّا وَالْوُقُوفِ²

4-الفخر والحماسة:

جاء في لسان العرب: "الفخرُ والفخرُ والفخرُ: التمدح بالخصال، والافتخار وعد القديم"³، أما "الحماسة: فهي الشجاعة"⁴.

أما اصطلاحاً: فهو لا يخرج عن غرض المدح، ولا يختلف عنه إلا في تحديد الممدوح، حيث يقول ابن رشيق: الافتخار هو المدح نفسه، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه، فكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكلما قبح فيه قبح في الافتخار"⁵.

ولا نجد في هذا الباب عند التواتيين قصائد كثيرة تتحدث عن الشجاعة والبأس والقوة إلا ما نظمها "ابن الونان (ت 1187هـ) في شتممقيته الشهيرة، حيث راح يتحدث أولاً عن بطولته وشجاعته أمام محبوبته قائلاً:

وَاللَّهِ لَوْ حَلَّتْ دِيَارَ قَوْمِهَا وَاحْتَجَبَتْ عَنِّي بِبَابٍ مُغْلَقٍ

لَرَزَّيْتُهَا وَاللَّيْلُ جُونٌ حَالِكٌ وَحَفْنُهَا لَمْ يَكْتَحِلْ بِأَرْقٍ

مَعَ ثَلَاثَةِ نَقِيٍّ صَاحِبِهَا مَا لَمْ تَكُنْ نُؤُ الْوَقَايَةِ تَقِيٍّ

سَيْفٍ كَصَمَامَةِ عَمْرٍو بَاتِرٍ لَا يَتَّقِي بَيْلَبَ وَدَرْقٍ⁶

¹ - أحمد جعفري، الحركة الأدبية في إقليم توات، 247/1.

² - فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 و19م، ص 103.

³ - ابن منظور، لسان العرب، ج 5، مادة (فخر).

⁴ - المصدر نفسه، ج 6، مادة (حمس).

⁵ - الحسن أبي علي ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، 92/2.

⁶ - أحمد جعفري، الحركة الأدبية في إقليم توات، 238/1.

ومن الحديث عن بطولته وشجاعته التي طاول بها عمرو بن معد، والتي كانت سلاحه في الوصول إلى بيت محبوبته، انتقل إلى الحديث عن وصف فرسه وسلاحه فقال:

وَفَرَسٍ كَدَاحِسٍ أَوْ لَاحِقٍ يَوْمَ الرَّهَانِ شَأُوهُ لَمْ يَلْحَقْ
تُقَدِّحُ نِيرَانُ الْحَبَاجِ حَوَا فِرُّهُ عِنْدَ خَبَبٍ وَطَلَقِ
كَالرَّيْحِ فِي هُبُوبِهِ وَالسَّمْعِ فِي وَثُوبِهِ وَكَالْمَهَا فِي فَشَقِ¹

ومن الافتخار بفرسه ينتقل إلى الافتخار بأسرته "بني ملوك" فيقول:

سَلَّ ابْنُ خَلْدُونٍ عَلَيْنَا فَلَنَا يَمِينٍ مَآثِرٌ لَمْ تُمَحَقْ
وَسَلَّ سُلَيْمَانُ الْكَلاَعِي كَمْ لَنَا مِنْ خَبَرٍ بِخَيْرٍ وَخَنَدَقِ²

وفي الفقرة الموالية ينتقل إلى الافتخار بنفسه قائلا:

وَأَزَنَ عِلْمِي أَدْبِي فَلَنْ تَرَى مِنْ شِعْرِهِ كَشْعْرِي الْمُنَمَّقِ
فَإِنْ مَدَحْتَ فَمَدِيحِي يُشْتَفَى بِهِ كَمِثْلِ الْعَسَلِ الْمَرُوقِ
وَأِنْ هَجَوْتُ فَهَجَائِي كَالشَّجَى يَقِفُ فِي الْحَلْقِ مِثْلَ الشَّرِقِ
وَهَلْ أَنَا إِلَّا ابْنُ وَثَانَ الَّذِي قَرَّبَهُ كُلُّ أَمِيرٍ مُرْتَقِي
أَحَقُّ مَنْ حُلِيَّ بِالْأُسْتَاذِ وَالشَّيِّ خِ الْفَقِيهِ الْعَالِمِ الْمُحَقِّقِ
وَبِالْمَحْدَثِ الشَّهِيرِ وَالْأَدْبِ بِ الْمَجِيدِ وَالْبَلِيغِ الْمُفْلِقِ³

وما نظمه الشاعر محمد بن أب المزمر (1160هـ) في مطلع مقطوعتين بمعدل خمسة أبيات، افتخر فيهما هو الآخر ببراعته وتفوقه في نظم الشعر إلى الدرجة التي أصبح فيها سيدا ومضربا للمثل، مثله مثل عمرو بن كلثوم في إقدامه، وإياس بن معاوية في ذكائه، وحاتم الطائي في جوده، حيث يقول في مستهل مقطوعته الأولى:

وَفُزْتُ بِدُرِّ الشَّعْرِ إِذْ غُصْتُ بِحَرِّهِ وَمِثْلِي لِنَيْلِ الدُّرِّ مِنْ بَحْرِ أَهْلِ
فَحَازَ نِظَامِي فِيهِ أَبَدَعُ صَنَعَتِي مَنْ اللَّهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ ذَلِكَ الْفَضْلُ
وَأَمْرِي سَلَمُ الْإِتِّصَالِ وَمَنْ يَرُمُ تَصَالِي فَإِنَّ الْخُطْبَ فِي شَأْنِهِ سَهْلُ⁴

¹ - المرجع السابق، 239/1-240.

² - المرجع نفسه، 241/1.

³ - المرجع نفسه، 242-243/1.

⁴ - أحمد جعفري، رجال في الذاكرة محمد بن أب المزمر، ص 90.

ويقول في مقطوعته الثانية:

إِذَا سَادَ بِالْأَقْدَامِ عَمْرُو وَبِالدَّكَا
تَفَرَّدَ إِيَّاسٌ وَبِالْجُودِ حَاتِمٌ
فَإِنَّ شِعَارِي صَنَعَةَ الشَّعْرِ فَالَّذِي
يُنَازِعُنِي فِيهَا فَذَلِكَ ظَالِمٌ¹

ثانيا: النشر:

إذا انتقلنا إلى النشر فإننا لا نجد مؤلفات كثيرة، لأن التواتيين اهتموا بالشعر أكثر من النشر، وربما يرجع ذلك إلى سهولة حفظه لما يمتاز به من وزن وقافية، وإذا قلبنا الخزائن التواتية لم نعثر إلا على عدد قليل من المؤلفات النثرية نذكر منها:

1- التاريخ: ألف الشيخ محمد بن المختار الكنتي كتابه الشهير الذي سماه "الطرائف والتلائد في معرفة الوالدة والوالد"، كما ألف الشيخ محمد بن عمرو بن محمد الجعفري البداوي كتابا سماه "نقل الرواة عن من أبدع قصور توات".

2- التراجم: ألف الشيخ عبد القادر المهداوي كتابه الذي سماه "الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية"².

3- الرحلات: لعل من أشهر الذين أرخوا لرحلاتهم المختلفة في منطقة توات، نذكر الشيخ عبد الرحمن بن باعومر التلاني (ت 1221هـ)، الذي اشتهر بين علماء عصره بكثرة رحلاته وتنقلاته طلبا للعلم أولا، وزيارة للروضة الشريفة وأداء لمناسك الحج ثانيا³.

كما اهتم الشيخ عبد الله بن أحمد الفلاني بأدب الرحلات، وكتب رحلته في طلب العلم والحج إلى البقاع المقدسة⁴.

وللشيخ أبي حفص إدريس التواتي (ت 1152هـ) رحلة مشهورة في طلب العلم، انطلق فيها من توات وصولا إلى مدينة فاس بالمغرب، مخطوط الرحلة يقع في أربعة عشر ورقة ونصف، بمجموع تسعة وعشرين صفحة⁵.

¹ - المرجع نفسه، ص 94.

² - ينظر الصديق حاج أحمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11 إلى 14 هجري / 17 إلى 20 م، دون دار، الجزائر، 2003 م، ص 150.

³ - أحمد جعفري، الحركة الأدبية في إقليم توات، 144/2.

⁴ - الصديق حاج أحمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات، ص 150.

⁵ - ينظر أحمد جعفري، الحركة الأدبية في إقليم توات، 149/2-158.

وأخيرا رحلة الشيخ ضيف الله بن محمد بن أب المزمري التي احتوت على كثير من المعلومات التاريخية الهامة المتعلقة خصوصا بوالده " محمد"، وبعض علماء عصره الآخرين، كما تضمنت أيضا العديد من القصائد الشعرية له ولوالده، بالإضافة إلى بعض النوازل الفقهية المختلفة، جاءت الرحلة في مائة وتسع صفحات¹.

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن للرحلة أسبابها ودوافعها، وكان طلب العلم من الأسباب الرئيسة لرحلات التواتين إلى جانب الحج، وبالإضافة إلى التاريخ والتراجم والرحلات هناك:

أ-الوصايا: ومن أهم ما كتب في هذا الباب، هذه الوصية التي كتبها الشيخ أبو العباس أحمد زروق بن صابر البداوي (ت 1244هـ)، حيث يقول فيها:

" عليك بتقوى الله الذي لا بد من لقائه، واحذر مخالفة أمره في شدته ورخائه، وأحدث لكل ذنب توبة، ولكل التفاتة أوبة، فإن المرء غير معصوم من الزلل، وغير واثق بنفسه في دوام العمل، من عز عليه دينه هانت عليه الأمور كلها، ومن ترك نفسه دارت عليه الدوائر، فلا في الدنيا يفلح، ولا في الآخرة ينجح ...، من كان شرفة بعمله أدرك جميع آماله، ومن كان شرفه بنسبه كانت نجاته أبعد من عطبه، والناس أبناء أخلاقهم، ومن أحب قوما كان منهم، فاحذر حب الظلمة وموالاتهم، وجانب أبناء الدنيا ومخالطتهم..."².

ب-الخطب: من أشهرها ما كتبه الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنايني، وهي كثيرة نذكر منها هذه الخطبة التي يقول فيها:

" الحمد لله الذي تصرف في خلقه كيف شاء وأراد، ويسر الكل لما خلق له فلا يصرف عنه ولا يزداد، الذي من علينا بخير البركة، وألهمنا لاتباع طريقته، المنزه عن الشبه والشريك والنظير، الذي لا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير ...، أيها الناس تحببوا إلى الله ببعض أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم فما رضي الله بسخط كل عاصي ...، وعليكم وفقكم الله باتباع سنة نبيكم، واتقوا العمل المؤدي لجهنم ..."³.

¹ - ينظر المرجع نفسه، 157/2-158.

² - ينظر المرجع نفسه، 115/2-116.

³ - المرجع نفسه، 120/2-121.

ج-الرسائل: ومنها في هذا الباب، هذه الرسالة التي بعث بها الشيخ عبد الله بن سيدي عبد الرحمن بن عمر التلاني (1221هـ)، لابن عمه الشيخ عمر بن عبد الرحمن التلاني، يعتذر فيها حيث يقول:

" إلى أحنينا النبيل، الأوحد المثليل، الخليل الجليل، الفقيه المطالع، الكاتب البار، الذي جمع المكارم مسارع، أبي حفص سيدي عمر بن عمنا الحاج عبد الرحمن، كآلاه (من التوكل) ورعاه، وأنجح بمنه ومطلبه ومسعاه. وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه وتحياته، هذا وقع مني إليك ما أوجب عن اعتزار، وإلى مرضاتك أن أسعى وأبتدر ...، فإن رأى سيدنا أن يحط عن أخيه بعض أحواله، ويحتسب الأجر في إبلاغ آماله، فذلك المرجو من فضله ...، والله ييقيك ويرقيك والسلام"¹.

خاتمة:

لقد أثرت الحركة الأدبية التواتية لعلمائها فساهمت ب:

- الاهتمام بالعلم كركيزة أساسية في نشر الوعي بين الناس.
- النهوض بإقليم توات حضارياً من خلال مختلف المصنفات التي دلت على طول باع الشيوخ والعلماء سواء في فنون الأدب أو أغراض الشعر المتنوعة التي بسطوها بدورهم لطلبتهم.
- الدور الهام للزوايا والمساجد في تلقين المتعلمين شتى أصناف العلم من فقه وحديث ولغة ونحو... الخ.
- إن الطلبة لم يتوقفوا على بيئتهم وإنما سافروا لتلقي المزيد من العلم ليرجعوا بعد ذلك بإجازات تتيح لهم تدريس تلك العلوم التي تلقوها.
- نظم العلماء بعض مصنفات العلوم شعراً لتسهيل حفظها.
- إن بعض أغراض الشعر التي نظم فيها بعض العلماء وراحت قرائهم تبدع فيها، وأخص بالذكر مثلاً المزمري.
- تأليفهم لبعض العلوم التي تعد مصادراً للمنطقة كعلم التاريخ والرحلات.

¹ - سيدي عمر بن عبد العزيز، قطف الزهرات من أخبار علماء توات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ط1، ص94.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - القرآن الكريم برواية حفص.
- 2 - باي بلعالم (محمد)، الرحلة العلية، دار هومة، الجزائر، 2005م.
- 3 - حاج أحمد (الصدّيق)، التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11 إلى 14 هجري / 17 إلى 20م، دون دار، الجزائر، 2003م.
- 4 - جعفري (د. أحمد)، الحركة الأدبية في إقليم توات، منشورات الحضارة، الجزائر، ط1، 2009م.
- 5 - جعفري (د. أحمد)، محمد بن أب المزمري حياته وآثاره 1160 هجري، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2004.
- 6 - شبهي (عبد العزيز)، الزوايا والصوفية والغربة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب وهران، الجزائر، دط، دت.
- 7 - ابن عبد العزيز (سيدي عمر)، قطف الزهرات من أخبار علماء توات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ط1، 1985م.
- 8 - أبي علي بن رشيق القيرواني (الحسن)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2001م.
- 9 - فرج محمود (فرج)، إقليم توات خلال القرنين 18 و19م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988.
- 10 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1968م.
- 11 - نويهض (عادل)، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية بيروت، لبنان، ط2، 1980م.